

الرواية في السودان

الهروب الاحتجاجي.. إلى أرتكاتا⁽¹⁾

من أهم ما يميز الرواية بصفة عامة، والرواية العربية بصفة خاصة، استجابتها للتغيرات والفورات المجتمعية الحادثة بها، نتيجة الانفتاح على العالم، وما أدى إليه من زيادة الوعي بما تعانيه هذه المجتمعات. ولما كانت هذه المجتمعات لا زالت تعيش الأمية الديمقراطية، وتعرض سطوتها وقمعها على كل صاحب رأى أو رؤية، وفى مقدمتهم الكتاب عامة، فطاردتهم وألحقت الكثيرين منهم السجون والمعتقلات، أو أرغمتهم على الهجرة خارج البلاد. والأمثلة على ذلك كثيرة، خاصة كتاب الستينيات الذين استيقظ وعيهم على ما يدور تحت السطح، من كبت وتكميم، فلجأوا إلى الأساليب الرمزية التى تحايلوا بها على جهل الرقيب، أو الهروب من المباشرة فى المواجهة، فاستعاض بهاء طاهر بـ (صفية) عن مصر رمزاً فى "خالتي صفية والدير"، وصنع الله إبراهيم بـ (أشرف عبد العزيز) فى "شرف"، واستحضر جمال الفيضانى عصر المماليك، ليلبسه ثوب الحاضر فى "الزنى بركات". ومن قبل كان فتحى غانم قد صورها فى شخصية صفية فى (زينب والعرش)، وكان نجيب محفوظ قد صورها فى (العوامة) فى رائعته المبكرة فى هذا المضمير فى (ثرثرة فوق النيل).

وإذا كانت الرواية قد لعبت دوراً تنويرياً، بفتح باب الحوار بين الثقافة العربية والثقافة الغربية، فأشعلت قنديلاً لا شك كان له

(1) أرتكاتا - هشام آدم - شمس للنشر والتوزيع - الطبعة الأولى - القاهرة ٢٠٠٨.

دور كبير فى محاولة إيقاظ تلك الشعوب النائمة. فقدم توفيق الحكيم "عصفور من الشرق" وقدم يحيى حقى "قنديل أم هاشم" وقد اللبناى سهيل إدريس "الحى اللاتيني" وقدم السودانى الطيب صالح "موسم الهجرة إلى الشمال" اعتمدت إما على عودة العربى من الغرب محملاً بالجديد من الأفكار على مجتمعه، وإما بتجربة العربى فى الغرب، فكان الاحتكاك وكانت المقابلة، خالقة نوعاً من الصراع بين الحالتين.

ثم يأتى الكاتب السودانى "هشام آدم" فى أولى رواياته "أرتكاتا" مستفيداً من تلك الحالات (الرمزية والاحتكاكية)، ليخرج بشكل جديد، حيث يزرع العربى فى الخارج متخفياً بزى أفرنجى (إسباني على وجه التحديد)، ليصب جام غضبه ورفضه للممارسات العربية عامة، والأصولية خاصة، وكأنه هروباً من المواجهة المباشرة غير محسوبة العواقب، يهرب إلى الخارج ليعلن معارضته لما يدور فى بلده التى سيطر عليها حكم الأصوليين والإسلاميين، فى عهد كل من النميرى والترابى، ولما جرى من وراء حكمهم من اعتقالات وكبت حريات، وتطبيق للحدود تطبيقاً حرفياً مجحفاً.

لمن لا يعرف إسبانيا مثلى، يبدو العنوان محيراً "أرتكاتا"، فما فى لغتنا العربية ما يؤدى بنا إلى معنى أو إحياء، فنضطر إلى تجاوز العنوان فنفاجاً أننا أمام نص مفاير، يبدو كما لو أنه نص مترجم، فالأجواء غير عربية، ثم نجد شخصاً يدعى "كاسبرسا رجينيو" يروى ذكرياته، يقوم برحلة خارجية - عبر إسبانيا - وداخلية عبر الأديان، تفرغ أبوه بعد التقاعد للعبادة. إلا أنه لم يغادر قساوته، بل وغلظته. وفى رغبة منه لاستثمار ما خرج منه عند التقاعد يقرر تربية الخيول، يتأمل الفتى كاسبرو وتخرج منه أمنية تعبر عن عمق العلاقة بينه وبين الأب، ومدى التباعد والفجوة (ربما يفلح فى تربية الخيول، طالما لم يفلح فى تربية أبنائه).

ولم تكن العلاقة مع الأب بأفضل منها مع الأم، التي تنظر للأبناء - كأحدى الأرسقراطيات - إلا على أنهم للوجهة الاجتماعية فقط.

ثم تبتز جميع العلاقات النسائية للفتى كاسبر، حتى تلك التي هجرها منذ تسع سنوات (كارسيس) التي لم تصارحه بالحب إلا بعد هذه الفترة، وبعد أن تكون قد تزوجت، إلا أن علاقة جسدية تقوم بينهما، ليتأمل الفتى (ياحساس شرقى / رغم أنه لم يكن شرقياً):
{وفكرت ذات يوم فيمن أكون، وذهلت للنتيجة التي توصلت إليها، فلم أجد نفسى سوى خاسر متبجح، فقد خسرت ساريسيا وكارسيس ووالدى ونفسى قبل كل ذلك، ولم أزل أبحث بين الكتب المقدسة عن إجابات لأسئلتى المهرطقة، عرفت عندها أنه يجب على أن أبحث عنها فى مكان آخر⁽¹⁾. وليكشف عن الرحلة الأخرى (الداخلية) حيث يجد (كاسبر) فى إحدى الرحلات الجامعية يواجه المرشد السياحى المسلم "جهاد" - ولا شك أن الاسم هنا ذا دلالة - فلا يفتأ أن يتفجر الكره الدفين الذى زرعه فيه جده للمسلمين منذ أن (غزوا) - على حد تعبير الجد - إسبانيا فى مطالع عهد الاسم. غير أن الفتى (كاسبر) عندما يطالع بعض الكتب التى تتحدث عن ذلك الرجل الذى جاء (قبل ألف عام) فكنت {عكس ما توقعت، فمضيت أقرأ فى سيرته حتى وصلت إلى اللحظة الأخيرة التى سبقت موته، فوجدتني أبكى كأننى فقدت صديقاً مقرباً لم أقرأ عن شخصية مثيرة بقدر ما قرأت عن محمد نبى العرب، فأحسست تجاهه باحترام كبير، وتمنيت أن يكون ما قرأته عنه صحيحاً وغير محرف⁽²⁾. ولنكتشف نحن أن هشام آدم ما أراد نقد الأساليب الإسلامية فى حد ذاتها، وإنما أراد

(1) ص ١٢٧.

(2) ص ١٢٢.

إدانة أساليب أتباع الإسلام، في الحين الذي يتبرأ منه نبي الإسلام ذاته. ويصل في النهاية إلى {قناعة لا أعرف منبعها أن التدين لا يشترط وجود دين، يجب أن يحاسب الناس على أعمالهم، لا على اتباعهم لدين ما بعينه} (١).

الرواية والتلقى

تثير رواية (أرتكاتا) العديد من التساؤلات التي تدور حول عملية التلقى، تلك التي تقوم على اعتبار القارئ طرفاً فعالاً للعمل، وعنصراً فاعلاً في وجود النص. فهل يتفاعل قارئ "أرتكاتا" معها رغم ما قد يخالف أفق توقعه حول كتابة لكاتب عربي؟

إن الفضاء والشخص يعيرون بيئة ليست مألوفة لهم. على الرغم أن الكاتب لم يستطع التخلص نهائياً من بيئته، حيث نستطيع تبين بعض الملامح التي تنتمي إلى البيئة الشرقية والتي قد تبدو غير مألوفة في المجتمع الغربي (حتى لو كان في الأندلس التي تعيش بقية من الأجواء الإسلامية) مثل ذلك الإحساس بالخطأ الذي عاشه السارد بعد العلاقة المحرمة مع محبوبته السابقة رغم زواجها. كذلك، تلك الوصية التي أوصاها الأب لزوجته باصطحاب الابن {إلى حيث مسقط رأسه لتتعرف على أقاربنا هناك، كان تصرفه هذا الذي بدافع صلة الرحم...} و{لا يخلو من زهو ذكوري طالما رغب أن يشعر به..} (٢)، وأيضاً {.. المرأة التي ترفض (الزنا) أو تستغيث كانت تعد امرأة غبية لأنها تقضح نفسها بنفسها..} (٣). وهو الأمر الذي يعتبر إحساساً شرقياً تماماً، يشهد على ذلك حالات الاغتصاب التي تصيب الكثيرات، ويفضلن الصمت خشية الفضيحة.

(1) ص ١١٤.

(2) ص ١٣.

(3) ص ٤٩.

ولا شك أن هذا الخلط يوقع القارئ في الحيرة. ويؤدي لعدم نقاء الفضاء المكاني، خاصة وأن هناك من المواقف التي كانت تصلح للأداء في البيئة السودانية وتمنح العمل مصداقية أكبر، وللمكان فعلاً أقوى مثل مشهد غرق الطفل في نهر "كويريو"، وما استتبعه من خلع الرجال لملابسهم، فما كان أحرى به أن يتم في أحد فروع النيل السارى في العديد من دول إفريقيا ليبحث فيه ليخصب الأرض، وليتحول في ذات الحين لمصدر الموت أيضاً.

الشخصيات والأسلوب

على الرغم من أن كل الشخصيات الواردة بالرواية جاءت كلها مجرد أدوات مساعدة، إلا أن الكاتب استطاع زرع كل المسببات التي تصنع من "كاسبر" شخصية مهياة لما آلت إليه من ضياع وتفتت وتشتت لم يصل لحد اليقين في لحظة - حتى تلك التي بكى فيها عند القراءة عن نبي العرب {وتمنيت أن يكون ما قرأته عنه صحيحاً وغير محرف}، فجاء كاسبر شخص فقد التعاطف مع الأب المنحدر من "القبائل النوركية"، والأم المنحدرة من أصل فرنسي والنفس التي تشتت وازداد تشتتها عندما {وقعت في يدي بعض المخطوطات والمنشورات الدينية في مكتبة الجامعة تتحدث عن الخطبة التي ألقاها البابا أريان الثاني في "كليرمونت" والتي يحرض فيها المسيحيون على عداة المسلمين الذين نعتهم بأنهم "أبناء عاهرات" وأكد في المقابل حصولهم على مكافأة من الرب لكل من يقتل مسلماً، عندها توقفت عن القراءة وتساءلت عن أي رب يتكلمون؟ هل يكون الرب يداً يبطش بها كل من استساغ القتل؟ وإلى جانب من يقف هذا الرب؟ كيف يهب جنته للبرابرة مقابل قتلنا، ويكافئنا بذات الجنة مقابل ذات الفعل؟⁽¹⁾، ذلك التشتت

(1) ص 111.

والتشكك إلى جانب الخوف من السباحة، والخوف من الطيران، جعل من "كاسبر" شخصية مهيأة للضياع وفقدان الثقة والحب في كل ما ومن حوله، حتى الأديان ذاتها، الأمر الذي لم يكن ليبوح به (كعربي) فاستزرع تلك الشخصية الغريبة حتى يعلن من خلالها رفضه للممارسات الآتية.

على الرغم من استخدام الأسلوب السلس الهادئ النبرة، وما يؤديه من جذب للقراءة، إلا أن تأخير البوح بما تريده الرواية إلى الصفحات الأخيرة، جعل الرواية تسير كما لو كانت مجرد ذكريات لشخص لا يعينى (كقارئ) - حيث يفقدني التعاطف الذي هو أول مراحل التفاعل - ساعد عليها استعمال تواريخ معينة ومحددة، ليس لها أي دلالة عامة، مما يزيد من الإحساس بذلك، الأمر الذي قد يجعل القارئ أقرب إلى الهروب، خاصة أنه لا يستطيع أن يجد نفسه في العمل، طالما العمل في المحك الأول رسالة، فضلاً عن كونه موضوعاً جمالياً، موجه لقارئ، هو الآخر نتاج أوضاع اجتماعية متغيرة.

كما توجد بعض الأخطاء التي كان يمكن التجاوز عنها بحكم العمل الأول، غير أن حصول الكاتب على الماجستير في اللغة العربية يجعل من الصعب التجاوز عنها خاصة تلك التي تتعلق باستعمال الهمزة، والركاكة الأسلوبية في القليل مثل: {حتى وأنا أعلم كيف سوف أوصلها إليك} والتي على الرغم من قلتها، إلا أنه في هذه الحالة لا أستطيع تجاوزها.

وعلى الرغم من ذلك يبقى لهشام آدم رؤيته غير المسبوقه - فيما أعلم - والتي تعطي لروايته طزاجتها، وريادتها في عملية التخيل التي يتحايل بها الكاتب على الواقع بهذه الطريقة.

فهرس

٥	إهداء
٧	مقدمة: الرواية والمجتمع
١٧	الرواية فى مصر الآن
١٨	ليس دائماً يعمل... قانون الوراثة
٢٨	كائن العزلة.. ويطولة اللافل
٣٦	والجنة مثوانا فى.. بهجة العمى
٤٨	عباس.. الأميبا.. لمن هو عبد
٦٢	السحر الأسود.. يُكفّن الحاضر
٧١	بمناسبة الحياة.. "م تيجى تتمرّد"
٧٨	دستور خيرى فى.. "كتاب التوهّمات"
٩١	خيانات.. سمير عبد الفتاح.. غير الشرعية
٩٩	العابثون فى الملاعب المفتوحة
١١٢	متاهة مريم متاهة جيل من الروائيين
١٢٠	الأبالسة تلهو.. بمستقبل الوطن
١٣١	الرواية فى سوريا
١٣٢	التداوى بالحب.. فى القلاع الضامرة
١٤٠	ذاكرة.. ابتسام الترسى تستقرئ واقع الأمة
١٥١	القنابل فى غسل.. سلوى النعيمى

١٥٧ الرواية فى السعودفة
١٥٨ الثورة الناعمة فى بنات الرفاض
١٦٥ الروافة فى المغرب
١٦٦ "ثقل العالم" والوضع العربى
١٧٧ الروافة فى السودان
١٧٨ الهروب الاحتجاجى.. إلى أرتكافا

صدر للمؤلف

- ١ - أفراخ الحمام مجموعة، قصصية المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٨.
- ٢ - الممنوع من السفر مجموعة قصصية، مركز الحضارة العربية، ١٩٩٨.
- ٣ - البواكير فى القصة القصيرة دراسات نقدية، مركز الحضارة العربية، ١٩٩٩.
- ٤ - يونيو ٦٧ وأثره فى الرواية المصرية دراسات نقدية، الهيئة العامة للكتاب، ٢٠٠٠.
- ٥ - ربيع ساعة بعد النهاية، دار سندباد للنشر والتوزيع رواية، ٢٠٠٤.

Email: shyehia@yahoo.com

من قائمة الإصدارات دراسات ونقد

- مستحيل الكتابة
د. أحمد الدوسري
- ضد هدم التاريخ وموت الكتابة
أحمد عزت سليم
- مغامر حتى النهاية
إدوار الخراط وآخرون
- الاستفهام بين النحو والبلاغة
د. الطاهر قطبي
- الإعلال عند النحاة واللغويين
د. الطاهر قطبي
- الإضافة أحكامها ودلائها
د. جميل علوش
- مناظرات في اللغة والنحو
د. جميل علوش
- الخطاب والقارئ
د. حامد أبو أحمد
- حضرية نقدية (دراسات في نقد النقد العربي المعاصر)
د. دسامي سليمان أحمد
- آفاق النظرية الأدبية الحديثة
د. السيد إبراهيم
- المتخيل الثقافي ونظرية التحليل النفسي المعاصر
د. السيد إبراهيم
- تعالقات الخطاب (المردية والمقالية) طه حسين أنموذجاً
د. عبد الرحمن عبد السلام محمود
- البلد البعيد (دراسات في أدب جوته - شيلر...،)
د. عبد الغفار مكاوي
- نقد وشعر وقص
د. عدنان الظاهر
- محمد مندور شيخ النقاد
فؤاد قنديل
- اغتيال المتنبى
فيصل الياسري
- في المرجعية الاجتماعية للفكر والإبداع
محمد الطيب
- قطعان الكلمات المضيئة
محمد عقيلة العمامي
- من التصوف إلى الفلسفة
د. مزهر الخفاجي
- أدب الطفل العربي بين الواقع والمستقبل
ممدوح القديري
- سلطنة عمان بين التراث والمعاصرة
يوسف الشاروني
- أثر الأدب العربي في الأدب الغربي
د. يوسف عز الدين
- التوجهات النقدية في رواية عودة الروح
أحمد بدران
- المشهد القصصي
إدوار الخراط
- القصة والحداثة
إدوار الخراط
- تقاسيم نقدية
زينب العسال
- أنثى النص (مقاربات في الأدب النسوي)
سعد الدين خضر
- الصوت والصدي (قراءة في المشهد الإبداعي)
السيد رشاد

البواكير في القصة القصيرة	شوقي عبد الحميد
إنتاج الدلالة الأدبية	د. صلاح فضل
منهج الواقعية في الإبداع الأدبي	د. صلاح فضل
تحولات الخطاب في القصة النسائية الإماراتية	عبد الفتاح صبرى
أدب الجسد بين الفن والإسفاف	د. عبد العاطى كيوان
الإغارة على الحدود: دراسات في أدب إدوار الخراط	د. ماهر شفيق فريد
قص، يقص: دراسات في القصة القصيرة والرواية العربية	د. ماهر شفيق فريد
التحليل النفسى للأدب	د. محمد حسن غانم
انطباعات أدبية ورؤى نقدية	محمد صفوت
السرد في مواجهة الواقع (فصول من القصة السعودية)	محمد قطب
التشابك الأسلوبى اللغوى في خطاب الليالى	د. محمد نادر
أشكال السرد في القرن الرابع الهجرى (كتاب الفرج	دمصطفى عطيه جمعه
بعد الشدة للتوخى نموذجاً)	
الرواية العربية بين التراث والمعاصرة	مصطفى القذافى
الرواية في زمن الغضب	ممدوح القديرى
الرواية العربية: رسوم وقراءات	نبيل سليمان
أوراق في النقد	هيثم يحيى الخواجة
يوسف الشارونى وعالمه القصصى	د. نعيم عطية
معجم أسماء قصص يوسف الشارونى	مصطفى بيومى
معجم حيوان قصص يوسف الشارونى	مصطفى بيومى
المؤثرات الإسلامية في قصص يوسف الشارونى	مصطفى بيومى
من جراب الحاوى	يوسف الشارونى
في الأدب العماني	يوسف الشارونى
القصة .. تطوراً وتمرداً	ليوسف الشارونى
الروائيون الثلاثة	يوسف الشارونى

بالإضافة إلى العديد من الكتب الأدبية؛ رواية.. قصة.. دراسات ونقد
وكتب متنوعة: سياسية، قومية، دينية، معارف عامة، تراث، أطفال.
خدمات إعلامية وثقافية

الآراء الواردة في الإصدار لا تعبر بالضرورة عن آراء بيتناها المركز